الآداب العربيَّة في الربع الاول منَ القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني

الآداب العربيَّة من ١٩٠٨–١٩١٨

الباب الثاني

نظر في الآداب العربية في هذه الحقبة

هي الحقبة الثانية من الاداب العربية في هـذا الربع الاوّل من القرن العشرين وهي تتناول عشر سنوات اوّلها اعلان الدولة التركية بالدستور وآخرها ختام الحرب الكونيَّة

وما يقال عنها اجمالاً انّها ابتـدأت بالفرح ولم يلبث ان عقبها الحزن والشقـاء فتأثرت بها الآداب العربية وجمعت بين المتناقضَيْن. فكان صدى الافراح والاحزان يُسمَع متناوباً في صرير الاقلام المعربة عن عواطف القلوب

أُعلن بالدستور العثماني بعد فوز الحزب العسكريّ في الاستانة في ٢١ تموز ١٩٠٨. فكان لهذا النبأ فرحٌ شمل عموم الرعايا في تركية واستبشر بـهِ الجميع خيراً وشعَرَ الناس كأنَّ حملاً باهظاً سقط من كواهلهم او حُطَّت عنهم رِبقـة الاستبداد وكُسِرت اغلال أسرهم. فانطلقت الالسنة بالمديح وشُحذت الاذهان بالتريض فضاقت صفحات الجرائد عن استيعاب ما تُنتج بهِ القرائح من الفصول الشائقة والقصائد الرنانة الرائقة

وما لبثت الجرائد المصريَّة والمغربية والاميركيَّة من مسلمين ودروز ونصارى تضرب على الوتر عينهِ فتارةً تطرئ الحرّية وتمجّد المساواة والاخاء. وتارة تسلق بسهام حادَّة تركية وسلطانها المستبدّ وحيناً ترفع الى السحاب نياذي وانور وطلعت وجمالاً وتُسكر بتحامد تركية الفتاة لاسيما بعد ان اضطرّت عبد الحميد الى النزول عن عرشهِ مخلوعاً ومنفيًّا الى سالونيك

على انَّ هذه الافراح لم تلبث ان ترنّق صفاؤها إذ ظهر للفرحين من استبداد كان شرًّا من الاستبداد الحميدي بتطرُّف ضابطي ازمّة الامور من جمعيَّة الاتحـاد والترقي اذ تحاملوا على مَن لم ينحَزْ الى رأيهم فرفعوا البعض منهم على الاعواد واذاقوا

غيرهم ضروب العذابات التي اعتادهـا هيج الشعوب . فكفّت تلـك الكتابات عن تزميرها وتطبيلها وغيّرت لهجتها نوعاً إلّا انها خوفاً من عتاب الحزب المتولي في دولة لم يجسروا ان يعلنوا بمآثمه

ثمّ زادت الاحوال حراجـةً بمكايد جمعيّة الاتحـاد والترقي وتقلّبت الوزارات وتعدّدت الاحزاب وبانت امور الدولة التركية منتهاها من الاضطراب بحروبها مع ايطالية سنة ١٩١١ــ١٩١٢ ومع الدول البلقانيّة سنة ١٩١٢ ــ ١٩١٣ فنقدت آخر ولاياتها في افريقية طرابلس الغرب وكادت الدول البلقانيّة تأتي على ولاياتها الاوربية لولا ما وقع بينها من النزاع . فوجدت هذه الاحوال كتبـةً وشعراء طنطنوا بمآثم تركيّة وبالتشنيع على اعدائها الايطاليين والبلغار

وكانت ثالثة الاثافي الحرب الكونيّة التي انحازت فيها تركية الى الدول المركزية مدفوعةً الى تحزّبها بمواعيد المانية الموقوبية وبمطـامع بعض زعمائهـا الساعين وراء مصالحهم الخاصّة فكان ما كان بكسرة المانية والمحاربين في جانبها فخرجت منهـا تركيّة مذلّلةً خاسرة

امّا الآداب العربيّة في مدّة تلك الفوضى فانّها كاد يُقضَى عليها بمصادرة الجمعيّات العربية وشنق بعض اصحابها واقفال المدارس ومناصرة اللغة التركية وتعطيل معظم الجرائد الوطنيّة والمطابع الاجنبيّة والحرّة في انحاء دولة الاتراك في بيروت ولبنـان وفلسطين وانحاء الشام والعراق . امّا في الخارج في مصرَ واميركا فانّ النهضة العربية بقيت على حالتها إلّا انها لم تترقّ لانقطاع معاملاتها مع بلاد الشرق التي منها تستمدّ كثيراً من موادّ حياتها وبانشغالها بامور الحرب واطوارها

امّا اوربّة فانّ غيرة علمائها في درس العلوم الشرقيّة عموماً والعربية خصوصاً لم تخمد فانها من السنة ١٩٠٨ الى السنة ١٩١٠ ثبتت على خطتها من النموّ والنجاح كما تشهد عليهـا مؤتمرات المستشرقين الدولية سنويا والعدد العديد من المطبوعات الجديدة التي نشروها ومن الآثار القديمة التي وقفوا عليها . وانّما تأثّرت ايضاً بالحرب العمومية لفقدانها عدّة من المستشرقين الذين هجروا الدروس ليداوموا مع مواطنيهم في ساحات الحرب عن حرمة بلادهم

ومع ما رأيت من نكبة الآداب العربية في هذه الحقبـة لا بُدّ من الاعتراف

بهمة الحكومة المصرية في تحسين مدارسها الوطنية وسعيها في زيادة مصاريف برنامجها لتعميم المدارس ولانشاء مدارس عليا وجامعة وطنية تلقى فيها الدروس العلمية الخاصة ينتدب اليها اساتذة بارعون من الوطنيين والاجانب. وهذه الجامعة المصرية تقوم بثلاثة اقسام كبيرة وهي كلية الآداب تشمل الآداب العربية وعلم مقارنة اللغات السامية وتاريخ الشرق القديم وتاريخ الامم الاسلامية والفلسفة العربية. ثم قسم العلوم الاجتماعية والاقتصادية ثم كلية السيدات وكان شروع الجامعة بهذه العلوم السنة ١٩١٠

وكانت الجامعتان اليسوعيتان الاميركية والفرنسوية زادتا ترقياً واتساعاً في هذه الحقبة الثانية ففي السنة ١٩٠٩ اضافت الكلية الاميركية الى مدرستها الطبية ثلثة مستشفيات للنساء وللاطفال ولامراض العيون. وانشأت في السنة ١٩١٠ مجلتها «الكلية» في العربية والانكليزية. اما الكلية اليسوعية فأقيمت معاهد جديدة فسيحة لمدرستها الطبية قريباً من رأس النبع على طريق الشام صار تدشينها برونق عظيم في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٢ ثم فتحت برتبة فخمة في ٢١ من الشهر في العام المقبل. اما معاهدها القديمة فخصصت بفرع جديد من الدروس العليا اعني مدرسة الحقوق التي أنشئت سنة ١٩١٣ وغايتها ان تجدد مفاخر مدرسة الحقوق الرومانية التي اكسبت بيروت مدة ثلثمائة سنة مجداً مؤثلاً اوقفته نكبات الزلازل التي هدمت المدينة في القرن السادس للمسيح. وفي تلك الاثناء أنشئت للمسلمين في دمشق مدرسة طبية وفي بيروت مدرسة حقوقية كان التعليم فيها باللغة العربية

ومما أنشئ من المجلات النفيسة قبل الحرب مجلة المقتبس سنة ١٣٢٤ لصاحبها السيد محمد كرد علي في دمشق. ومجلة الآثار في زحلة سنة ١٩١١ انشأها عيسى افندي اسكندر المعلوف. والنبراس لصاحبها مصطفى افندي الغلاييني سنة ١٣٢٧ والكوثر للسيد القباني وكلتاهما في بيروت. وانشأ ايضاً في بيروت الابوان يوسف عاوان اللعازري ويعقوب الكبوشي مجلتي الجمعية وصديق العائلة. والقس يوسف الشدياق الانطوني في نشر في بعبدا سنة ١٩١١ كوكب البرية. والعرفان لصاحبها احمد افندي عارف زين الدين في صيدا سنة ١٣٥٨ اما في مصر فتعددت المجلات المستحدثة نخص منها بالذكر مجلة الزهور للشيخ انطون افندي الجميل (١٩١٠) والمرآة لخليل افندي زينيه (لها بقية)